COMMUNAUTE DE SAINT EGIDIO

"RELIGIONS & CULTURES: LE COURAGE POUR UN NOUVEAU HUMANISME"

CONFERENCE INTERNATIONALE DE MILAN - ITALIE

5 - 7 SEPTEMBRE 2004

PANEAU :

"RICHESSE & FRAGILITE DE LA FAMILLE: RELIGIONS EN DIALOGUE"

نظرة الكتاب المقدّس إلى العائلة

أمام تحديات العالم المعاصر

المطران د. بولس يازجي

متروبوليت حلب والاسكندرون وتوابعهما للروم الأرثوذكس

P.B. 6976 ALEPPO – SYRIE -TEL: + 963 21 4660670 - FAX: + 963 21 4660671

-WEBSITE: WWW.ALEPPORTHODOX.ORG E-MAIL: SECRETARY@ALEPPORTHODOX.ORG

MILAN - ITALIE

2004

نظرة الكتاب المقدّس إلى العائلة
أمام تحديات العالم المعاصر[١]

مقدّمة

في البداية أريد أن أشكر أخويّة St. Egidio على فسح المجال لنا، من كلّ الجهات والمعتقدات أن نجتمع بالمحبّة في هذا الموضع وعلى الهمّ المشترك بيننا، الذي يلاقينا في الحقيقة، يلاقينا جميعاً أمام الله الواحد الأب كأبناء له، نسعى بالخير لبناء عائلتنا الإنسانيّة بالحبّ والسلام، بدءاً من كلّ عائلة يبنيها اثنان في زواج مبارك يملأ قلب الإنسان سلاماً ورجاءً وفرحاً. وأودّ أن أكرّر شكري للذين نظّموا هذا اللقاء على اختيارهم لهذا الموضوع الناجح.

يعالج موضوع العائلة أعمقَ مسألةٍ دينيّة، والمسألة المشتركة بين كلّ الشعوب والأديان، والبنية الأهمّ في بناء المجتمع التي تحدّد مستقبلَ الشعوب، تلك البنية الأكثر تهديداً اليوم وتبدّلاً.

في المفهوم الأنثربولوجيّ المسيحيّ، بشكل خاصّ، كما سنرى، لا تشكّل البنية العائليّة نظاماً ما (system) للحياة، ولكن غايةَ الحياة ذاتها. فالحياة في المسيحيّة ليست حياة الفرد، لأنّه، من وجهة نظرنا الأنثروبولوجيّة، لا يمكن أن تقوم حياة الإنسان إذا كان وحده: "ليس حسناً أن يكون الإنسان وحده، فلنصنعنّ له معيناً بإزائه"، هذه هي الكلمات الأولى للكتاب المقدّس.

المسيحيّة هي دين الشخصانيّة. فلا تنظر إلى الإنسان ككيانٍ حيوانيّ يطلب معيشته اليوميّة في إطار الولادة والنموّ والموت وحسب. الحياة في المسيحيّة هي العلاقة – الشخصيّة، التي بدونها ينطبق على الحياة ما يقوله الكتاب "ماذا يفيد الإنسان لو ربح العالم كلّه وخسر نفسه"، و"نفسه" هنا لا تعني معيشته ولكن "حياته مع الآخرين" أي شخصيّته. وبكلمة أخرى ذات خصوصيّةٍ وشموليّةٍ كبيرة في المسيحيّة، نعني بـــ "نفسه" هنا حياته الروحيّة أي علاقته كشخصٍ مع الله والقريب. وهذا ما تعنيه بعض العبارات اللاهوتيّة لدينا، والتي تبدو أحياناً للبعض شبه مقولاتٍ جامدة، بينما على العكس هي خبرةٌ إنسانيّةٌ مشتركة وحيّة لكلّ البشر، ومنها مثلاً عبارة "الخلاص ليس فرديّاً".

لا نعالج إذاً "موضوع العائلة" مسيحيّاً كما ندرس بنيةً اجتماعيَّة وحسب. لأنّ "العائلة"، في مفهومها المسيحيّ العميق والشامل الذي سنراه، هي غايةُ الخلق الإلهيّ للإنسان وهي الشكل الأخير الذي يجب أن

---

[١] ترجمة عن المقالة:
La Vision de la Famille dans la Bible face aux défis du monde moderne, Communaute de Saint Egidio “Religions & Cultures: le courage pour un nouveau humanisme” Conference Internationale de Milan – Italie 5th – 7th Septembre 2004. Paneau “Richesse & fragilite de la famille: religions en dialogue”

تصل البشريّة كلّها إليه في النهاية، فليست هي مجرّد شكلٍ من أشكال الروابط الإنسانيّة، التي يمكننا تبديلها مع الظروف للوصول إلى غايةٍ إنسانيّةٍ أخرى. إنّ الغاية الإنسانيّة الأخيرة (έσχατη) هي بناء عائلة، عائلة بين الزوج والزوجة والأولاد، وعائلة إنسانيّة شاملة. وفي كلتَي العائلتَين الله هو الأب الحقيقيّ. لا تبدونّ لنا هذه النظريّة مثاليّةً! على العكس، إنّ تفكّك بعض المظاهر العائليّة، برأينا، يعود لكون هذا الرابط العائليّ الطبيعيّ لا يتطوّر باتجاه هذه العائلة الروحيّة. وربّما كلّ ما نلاحظه من تفكّك ومشاكل اليوم هو مجرّد تمخّض يرفض أفكاراً في البُنى العائليّة الراهنة ويشكّل بداية ولادة العائلة الحقيقيّة التي يرعاها الله كأبٍ، ونرجو أن يكون الأمر كذلك، أو على الأقل لنسعى في سبيل بناء العائلة روحيّاً.

بمقدار ما نؤمن أنّ هذا الرابط "العائلة" ذو قيمة، بمقدار ما يتوجّب علينا أن نسهر على تطويره، لا بل أيضاً على مساعدته للوصول إلى صورته المثاليّة. ولا ننسى أنّ كلّ ما هو اجتماعيٌّ وشركويّ هو أمر ديناميكيّ لأنّه بالأساس، كما نؤمن مسيحيّاً، هو إلهيّ. فما هو إلهيٌّ هو في حركةٍ مستمرّةٍ ويجب أن نسهر ليكون إلى الأفضل. ليس من محتّم ولا من مقدّر، بل كلُّ شيءٍ مراهنة. الدعوة الإلهيّة أمامنا وتطبيقها في يدنا. نسعى معتمدين على ضوء الكتاب طالبين رضى العين الإلهيّة لتعضدنا النعمة حين نقدّم لها الطاعة.

تحظى العائلة في الفكر المسيحيّ بتعليمٍ كافٍ، فما هو؟ وهل الواقع الذي أمامنا اليوم وفي كلّ أنحاء العالم يتوافق مع هذا التعليم؟ وإذا كانت هناك فوارق، وهو كذلك، فأين هو ما يعارض هذا التعليم المسيحيّ؟ وهل هذا التعليم يشكّل فعلاً إجابةً للحاجة والخبرة البشريتَين؟ هذا ما نؤمن به.

سنقسم الموضوع إلى **فصلَين**، الأوّل يناقش الفكر الكتابيّ حول العائلة ويوضّح الصورة الحقيقيّة والمثاليّة للعائلة، من وجهة النظر المسيحيّة. ويناقش الفصل الثاني المشاكل الأساسيّة الراهنة للحياة العائليّة، والرجاء المسيحيّ في حلّها، سائلين أن تساهم هذه المداخلة البسيطة في تبادل الأفكار العميقة مع الإخوة والسادة الذين نشاركهم على هذه الطاولة الفكريّة والإنسانيّة.

I. نظرة الكتاب المقدّس إلى العائلة

١. العائلة في العهد القديم

لا ينظر الكتاب إلى ذاته بالعمق، على أنّه دينٌ أو شريعةٌ لأمّةٍ محدّدة، وإنّما يريد أن يتكلّم عن الله والإنسان عموماً، بغضّ النظر إذا ما كنّا نحن ننظر إليه على أنّه دين، أو نسمّيه كذلك. لذلك يتكلّم من صفحاته الأولى عن الخليقة كلّها، وعن الله الواحد وعن الإنسان أينما كان، وكائناً من كان.

لقد كانت العائلة **منذ لحظة الخلق** غايتَه. عندما خلق الله آدم لم يجدْ ذلك حسناً دون "أن يكون له آخر بإزائه"، أي مقابله – مثله – يحاوره ويشاركه وينمو معه ويمارس الفضائل الكتابيّة أمامه. لا بدّ للإنسان لكي يحيا من أن يعيش مع آخرين، إنَّ رباط الزواج والإنجاب لهو أقوى وأجمل كلّ الروابط في الحياة الإنسانيّة. إنّه أوّل رباطٍ يريد أن يبنيه، لا بل يأتي منه ويرافقه حكماً بحسب الطبيعة طيلة السنوات الأولى الأساسيّة من حياته. وحتّى إذا تحرّر منه مرّة بأسوأ الحالات فهو يسعى لبناء شيء مماثل له في النهاية.

لقد أودع الله **في قلب الإنسان دافعاً للزواج**، الذي بدون شركته لا يبدو أنّ الحياة تكتمل، كما جعل الإنجاب وعاطفة الأمومة ميلاً وإمكانيّةً طبيعيّة. وسمّى الكتاب على لسان الله، المرأة "حواء" أي أمّ الحياة، لأنّها أداة الإنجاب، ولكن بميلٍ ورغبةٍ[٢]، حتّى ولو أنّ هذا الإنجاب سيتمّ بالآلام والأوجاع، إلاّ أنّها عندما تلد سوف تفرح وتنسى ذلك الألم[٣]. وبلغ هذا الميل، في روايات الكتاب، ببعض النساء إلى الإلحاح على الله والصراخ إليه "هَبْ لي ولداً، وإلاّ فإنّي أموت"[٤]. يمدح الكتاب ويرتاح إلى بعضهنّ اللواتي اضطررنَ للحيلة ولطرقٍ أخرى من أجل الإنجاب وبناء العائلة مثل سارة[٥] وابنتَي لوط[٦]. لقد زرع الله حبّ الأمومة في طبيعة المرأة، فهي عندما تصبح أمّاً تتهلّل، لذلك هتفت حواء عند ولادها بابتهاج: "قد رُزقتُ رجلاً من قبل الربّ" وسمَّته قايين، أي من الله اقتنيتُه[٧]. واسم اسحق يذكّرنا "بضحك" سارة وفرحها ساعة ولادته. لا بل إنّ الإنجاب يثير تعلّق الرجل بامرأته. ويبدو، في الكتاب، أنّ الله يتدخل في التاريخ ويَعِدُ "بذريّة تعادل بكثرها نجوم السماء والرمل الذي على شاطئ البحر"[٨]. إنّ كتاب التكوين مليء بتاريخ الأجيال لتحقيق الأمر الإلهيّ: "انموا واكثروا واملؤوا الأرض".

في حين أنّ **وضع المرأة** عموماً، وتاريخيّاً، كان ومازال أيضاً غير متوازنٍ في مجتمعاتنا البطريركيّة، إلاّ أنّ هذا الاضطراب غير موجودٍ في تصوّر الكتاب للحياة الإنسانيّة، حين تستعيد المرأة كرامتها الحقيقيّة كأمٍّ وسيّدة وتشارك الرجلَ في المسؤوليّة. فالكتاب يساوي مسؤوليّة المرأة والرجل في أهمّ بُنى الحياة، أي العائلة، وذلك سواءً من ناحية المديح أو العقاب، عند حسن التربية أو إهمالها. في الإطار العائليّ قد يجري تمايزٌ في

[٢] تك ٢٠، ٣.

[٣] يو ١٦، ٢١.

[٤] تك ٣٠، ١–٢.

[٥] تك ١٦، ١.

[٦] تك ١٩، ٣٠–٣٨.

[٧] تك ٤، ١.

[٨] تك ٢٢، ١٧.

المواهب والخدم ولكن هناك تساوٍ في المسؤوليّة. هكذا يشكّل رباط العائلة الإطار السليم لصورة الحياة البشريّة، حين يكون هذا الأخير أيضاً سليماً.

بقيت العائلة بعلاقاتها **الشكلَ الأمثل** لكلّ أشكال التعاون والتجمّع البشريّ. فالقبيلة والعشيرة تريد أن تكوّن "عائلة" أو تكون على شكلها[٩]، فالأسباط سُمّيت "بيت يوسف" و"بيت إسرائيل"... حيث تريد أن تتصوّر على نمط العائلة. وعلى مدى التاريخ تبقى كلمة "أخ" هي الصفة الأمثل لأشكال العلاقات، فالصديق الصدوق يصير كالأخ! "الأخ أمنع من مدينة محصّنة"[١٠]. و"ما أطيب وما ألذّ أن يسكن الإخوة معاً"، بحسب المزامير[١١]. يجمع الرباط العائليّ الناس في علاقات الأمانة والصدق والتعاون والمساندة، فتصير العائلة كـ "عشٍّ" بحسب الأمثال[١٢]، حيث ينمو الإنسان تحت سقفٍ ومع إخوةٍ يعضدونه ويصادقونه ويحمونه طيلة حياته. لذلك يبقى في الضمير الإنسانيّ من أجمل عبارات السّلام والاطمئنان عبارة "البيت الأبويّ"، وهو تعبيرٌ اجتماعيّ استعاده يسوع ونقل معناه من ساحته الاجتماعيّة إلى ساحته الحقيقيّة، أي البيت الإلهيّ، في مثل الابن الضالّ.

يحتلّ موضوع **الإنجاب** وعدد الأولاد موقعاً هامّاً في الكتاب في عهده القديم. قد يبدو هذا طبيعيّاً للبعض بسببٍ من المجتمع البطريركيّ والزراعي آنذاك، حيث كان عدد الأولاد الكبير يشكّل غنى العائلة وقوّتها. وهذه الظروف قد تبدّلت اليوم فعلاً. لكن إذا صحّ هذا من ناحية، فإنّه يصحّ بمقدار. إنّ الإنجاب، أي الزواج لبناء العائلة، هو موضوع أنثروبولوجيّ في الفكر المسيحيّ وليس مجرّد موضوعٍ اقتصاديّ أو اجتماعيّ، فهو يندرج تحت نظرتنا لطبيعة حياة الإنسان وليس لمقوماتها الماديّة والاقتصاديّة إذ يدخل في حيّز علاقة الإنسان مع ذاته وقريبه والله.

يُعتبر الإنجاب في العهد القديم الغاية الأولى من الزواج، وتبدو العائلة الغنيّة بالأولاد المثلَ الأعلى، ويبقى "عدم الإنجاب عاراً بين الناس" وضعفاً. فبالإنجاب يُخلَّد الوجود وتتحقّق استمراريّة النسل والاسم. فالأطفال هم "إكليل الشيوخ"[١٣]. والبنون هم "كفروع الزيتون حول المائدة"[١٤]. ويغار الكتاب بشكلٍ خاصّ على حماية الحياة بتجديد بعض المحرّمات وتشجيع ثمر البطن "إذا أطعتَ الربّ إلهك يبارك ثمر بطنك"[١٥]. لذلك في

---

[٩] زك ١٢، ١٢-١٤.

[١٠] أم ١٨، ١٩.

[١١] مز ١٣٣، ١.

[١٢] أم ٢٧، ٨.

[١٣] أم ١٧، ٦.

[١٤] مز ١٢٨، ٣.

[١٥] تث ٢٨، ٤؛ مز ١٢٧، ٣؛ ١٢٨، ٣؛ أم ١٧، ٦.

وضعٍ استثنائيّ كحالة ابنتَي لوط[١٦] لا يتردّد الكتاب بذكر طريقة الفتاتَين بأن تُنجبا لهما حتّى من أبيهما نسلاً دون عِلمه، رغم أنّ ذلك هو أمرٌ تشجبه الشريعة كزنىً دونما شكّ. لكن ذلك يتضمّن داخله ثناءً على إتمام رغبة الخالق في الإنجاب حيال ظرفٍ استثنائيّ. فالخصوبة في العهد القديم هي واجبٌ. "وعدم الإنجاب يؤول إلى إراقة دمٍ بشريّ".

رغم أنّ الله قد أودع في قلب البشر أمنية الحياة العائليّة و**الأخوّة** وأوصى بها[١٧]، وهي الوصية الأولى التي تحمل وعداً وليس تهديداً، مفتتحةً القسم الثاني من الوصايا العشر[١٨]، لكنّ هذه الأمنية لن تصبح حقيقة سليمة إلاّ بعد مسيرةٍ طويلة. لأنّ قصّة الآدميّين كما يقرؤها الكتاب منذ بدايتها هي قصّة "الإخوة والعائلة المنفصمة العرى". فهذا قايين يقتل أخاه هابيل حسداً، حتّى أنّه لا يريد أن يعلم أين هو أخوه، ويتبرّى من الرباط الذي أنشأه الله[١٩]. ويصطدم هذا الرباط العائليّ والمثل الأعلى للحياة دائماً بقساوة قلوب الناس. فمنذ سقوط آدم أصبحت الإنسانيّة تحت نير الخطيئة بين الطاعة والعصيان، تشدّ أو تفكّك عرى الرباط العائليّ. لذلك، إلى جانب الصور الخاطئة تترافق أيضاً الصور الصحيحة، فهذا ابراهيم يتجاوز وضعيّاتٍ محدّدةً ليتعاون مع لوط بحكم الرابط العائليّ[٢٠]، وبسبب هذا الرباط يتصالح يعقوب مع عيسو[٢١] ويصفح يوسف عن إخوته[٢٢]. وحين تغيب المحبّة ويضعف الرابط العائليّ يوجّه الكتاب المقدّس تهديداته وتأنيبه[٢٣]، فالخصومات والخطيئة هي التي تفرّق الإنسانيّة والحياة العائليّة وتخلق الشقاقات والحروب، ليس بين أعضاء العائلة الطبيعيّة الصغيرة وحسب، ولكن بين أعضاء العائلة الإنسانيّة الكبيرة أيضاً[٢٤]. والحاجة هي إلى إعادة إحياء هذه الروابط العائليّة.

٢. العائلة في العهد الجديد

يتميز موضوع العائلة في الفكر المسيحي بأمرين. الأمر الأول، أنّ العائلة المكوّنة من الزوج والزوجة والأولاد، ما هي إلاّ **جزء من العائلة الإنسانيّة الواحدة** كلّها. والأمر الثاني هو سبب الأوّل، أنّ **الله هو الأب الحقيقيّ لكلّ عائلةٍ** ولكلّ إنسانٍ وللإنسانيّة قاطبة. "فالوالد" هو الوالد وليس الأب. لأنّ الله الآب هو الأب. والوالد يلد لكي يسلّم أولاده لأبيهم الحقيقيّ. لقد اعتاد الشعب في العهد القديم أن يجتمع على مائدة

[١٦] تك ١٩، ٣٠–٣٨.

[١٧] خر٢٠، ١٢.

[١٨] أف ٦، ١–٣.

[١٩] تك ٤، ٩.

[٢٠] تك ١٣، ٨.

[٢١] تك ٣٣، ٤.

[٢٢] تك ٤٥، ١–٨.

[٢٣] هو ٤، ٢؛ ار ١١ ،١٨؛ أيو ٦، ١٥.

[٢٤] أش ٧، ١–٩.

الفصح ويتناول تلك الوجبة العائليّة المقدّسة بتقليدٍ اجتماعيٍّ دينيّ. وكانت العائلة كلّها تجتمع حول المائدة، تاركين رأس الطاولة فارغاً، وذلك إيماناً منهم أنّ هذا المكان الرأس هو لله الأب الحقيقيّ، بينما كان يجلس الوالدان كأعضاء وإخوة أكبر على طرفَي الطاولة التي لها الأب الواحد وهو الله. وهذه هي العائلة الحقيقيّة في كمال **أبعادها الروحيّة**.

إنّ هذه الصورة الحقيقيّة والنهائيّة للعائلة، وإن أخذت لها صوراً وإشاراتٍ في العهد القديم، كما ذكرنا سابقاً، إلاّ أنّها لم تكتمل إلى أن جاء يسوع في العهد الجديد. وبدأ رباط العائلة يأخذ صورته الحقيقيّة الروحيّة، بعد أن كان قائماً على العِرْق والدم فقط. ويبدو في تعليم العهد الجديد أنّ الرباط العائليّ مقدّس، ولهذا السبب يحمل رباطاً روحيّاً أكثر مما هو جسديٌّ فقط، وبدون هذه العلاقة الروحيّة لا يفيد الرباط الجسديّ. هذه العلاقة الروحيّة ليست ذات أساسٍ اجتماعيّ، أي ليست للمحافظة على روابط ما كالمحبّة والتعايش فقط، وإنّما بالأساس تنطلق من فكرة تحديد الأب والدور الحقيقيّ للوالد والوالدة والأولاد في العائلة، أي تحديد غاية البنية العائليّة للحياة.

لذلك لا يتردّد يسوع بأن يشجع على "**العقم الاختياري**"[٢٥]، لأنّ البتوليّة في النهاية لا تلغي العائلة الحقيقيّة بقدر ما تنّمي رابطَها. أي أنّ البتوليّة تحقّق اللهَ أباً للناس ولو دون خبرة زواج. إنّها تحقّق "العائلة الروحيّة" بقفزةٍ فوق وسائط الحياة العامّة الطبيعيّة، وتصل مباشرةً إلى غاية الحياة الإنسانيّة. هنا يوضح العهدُ الجديد نقلتَه الجذريّة في تطهير غاية الحياة العائليّة إذ ينقل الغاية من "الإنجاب" إلى "الخلاص"، ومن "العدد" إلى "العلاقة"!

لقد جاء يسوع إلى العالم ليكشف للناس أنّ الله هو "أبوهم"، وأنّ الله ليس قاضياً ولا حاكماً ولا مجرّد خالقٍ، وليجعل هذه المعرفة غايةَ الحياة، من النظرة المسيحيّة، أي أن يتعرّف اللحمُ والدم والتراب إلى أبيه السماويّ وإلى انتمائه الإلهيّ: "وهذه هي الحياة أن يعرفوك (أباً) أنت الإله الحقيقيّ، ومَن أرسلتَ يسوعَ المسيح"[٢٦]. لذلك عندما سأله التلاميذ قائلين: علّمنا أن نصلّي، أجاب: صلّوا هكذا "أبانا الذي في السموات". لقد أطلق العهد القديم صورة الأب وصورة الأم على الله، وذلك تعبيراً عن حنانه ورعايته. لكن العهد الجديد يشدّد على أنّ الله أبٌ ليس بصفة حنانه ولكن بصفة عضويّته.

لذلك **تختلف المسيحيّة مع كثيرٍ من التيارات الفلسفيّة والإنسانيّة**، ففي حين يزعم العالم بأنه يقيم "علاقات أخويّة" ومنظّمة بين البشر، يريد الفكر المسيحيّ أن يبني "علاقة عائليّة". فلا **أخوّة بشريّة دون أب**. من مستوى العائلة الصغيرة إلى مستوى المسكونة جمعاء، يكشف الكتاب المقدّس أنّ الرباط الحقيقيّ الذي

[٢٥] مت ١٩، ١٢.

[٢٦] يو ١٧، ٣.

يجمع الناس ليس إلاّ "الأب"، وهو الله. ولهذا الأب عائلةٌ واحدةٌ كبيرة هي كلّ المسكونة مكوّنةٌ من عائلاتٍ صغيرة[٢٧].

لماذا تجسّد الابن من الثالوث الأقدس؟ سؤالٌ يطرحه القديس مكسيموس ويجيب: لكي يظهر الله كأب، عندما سينادي يسوع الله: "أبّا، أيّها الآب"[٢٨]. وهذا اللّفظ يعادل لفظنا "يا بابا"، ويحمل نوعاً من الدّالة لم يكن يُعرف لها مثيلٌ قبل يسوع. يستخدم بولس الرسول هذه العبارة نفسها لنا، حين يصرّح أنّه بالروح القدس نستطيع أن نقول نحن أيضاً "أبّا" للآب. هكذا ببنوّة يسوع للآب يصل العهد الجديد إلى كشف صورة الآب بكمالها وأبوّة الله الشاملة لجميع البشر. إنّ يسوع على الصليب "صار بكراً لإخوة كثيرين"[٢٩]، وقد سمّى الناس إخوة[٣٠]. لذلك هم إخوة فيما بينهم بحكم الإيمان بالله الآب الذي صار لهم بالولادة الجديدة[٣١] وهو "لا يستحي أن يدعوهم إخوة"[٣٢]. لقد تبنّانا الله أبناءً له[٣٣].

من هنا ابراهيم هو أبو المؤمنين، وذريّته هي مَن تعمل أعماله وليس مَنْ ينحدر من عرقه، فهم مَن يحفظون البركات[٣٤]. بالمعموديّة تتكوّن عائلةٌ ذريّتها جديدةٌ بحسب الموعد وليس بحسب الجسد[٣٥]. لذلك فإنّ العائلة لا تكون حقيقيّةً ولا يقوم الرباط الذي فيها إذا لم تحمل هذا الموعد وتنقله لأولادها.

لقد شرّع العهد القديم بناء هذا المفهوم الروحيّ للعائلة ولكن عن طريق الولادة الطبيعيّة فقط، ولم تعرف الممارسةُ الواقعيّةُ اللهَ كأبٍ إلى أن جاء العهدُ الجديد، ليجعل العلاقة الروحيّة بالله الآب كأبٍ هي أساس حتّى الرباط العائليّ الطبيعيّ بين الأهل والأولاد. فالعائلة هي مكان وراثة المواعيد[٣٦] لهذا لا تكفيها الروابط الطبيعيّة، بل الأساس فيها هي المواعيد الروحيّة، وهذا يتمّ عمليّاً عندما تصير الكنيسة هي "أمّها". تمثّل دائماً مريمُ صورةَ الكنيسة (الوالدة). لذلك شبّه بولس الرسول الزواج المسيحيّ بعلاقة الرجل والمرأة، حيث تصير العائلة سرّاً لإنجاب أولاد لله. **فالعائلة الروحيّة الحقيقيّة تتكوّن من الله الآب – الأب، ومن الكنيسة – الأمّ**. وكما ينادي الناس الله الآب "أبّا" هكذا ينادون الكنيسة "أمّاه"[٣٧]. فالعائلة الحقيقيّة الأخيرة هي

---

[٢٧] العائلة الطبيعية تتألف من زوج وزوجة وأولاد.

[٢٨] مر ١٤، ٣٦.

[٢٩] رو ٨، ٢٩.

[٣٠] يو ٢٠، ١٧. مت ٢٨، ١٠.

[٣١] يو ٣، ٣.

[٣٢] عب ٢، ١١.

[٣٣] غلا ٤، ٥-٧. رو ٨، ١٤-١٧. أف ١، ٥.

[٣٤] غلا ٣، ٧-٨. رو ٤، ١١-١٨.

[٣٥] غلا ٣، ٢٧-٢٩.

[٣٦] غلا ٤، ٢٥.

[٣٧] مز ٨٩، ٥. غلا ٤، ٢٦.

الكنيسة، أورشليم السماويّة النازلة من السماء المجتمعة حول الله[٣٨] التي تلد أبناءها لحياة أبناء الله. إنّ هذا المعنى الأبويّ لله والأموميّ للكنيسة خالٍ من أيّة صورة كالتي عند الآلهة السامية وبعل الذي يعطي الخصب للحيوانات والإنسان. الكلام هنا عن أبوّةٍ وأمومة وذريّة روحيّة، لا نقول إنّها غير الذريّة البشريّة الجسديّة، وإنّما تنتظر في الأخيرة تحقيق هويّتها فيها روحيّاً.

تميّز النظرة المسيحيّة للعائلة بين "الأب" وهو الله وبين الوالد والوالدة. لذلك يأخذ دور الوالد والوالدة قدسيّته من حيث طبيعته كصلةٍ تسير بالأولاد إلى أبيهم الحقيقيّ. لذلك ليست عائلةً حقيقيّة، في النظرة المسيحيّة، أيّةُ جماعةٍ مؤلّفة من زوج وزوجة وأولاد فقط. لا تُبنى العائلة دون الأب، وهو الله، طبعاً وليس الوالد. وهذا ما تعلنه الخبرة البشريّة كما يوضحه المثل الرائج "إذا كبر ابنك آخيه". الوالد والوالدة هما الإخوة الأكبر يسهران على تربية الأولاد لبناء العائلة مع الأب – الله. من هذا المنظار بحسب تعبير الذهبيّ الفمّ: "الوالد الذي لا يقود أولاده إلى أبيهم السماويّ هو بالأحرى قاتل"[٣٩]. يشكّل الأولاد، حسب إيماننا، "وديعةً" لدى الأهل وكنزاً يجب المحافظة عليه وبناؤه كما يجب[٤٠]. من هنا لم يتردّد المسيحيّون عن تعميد أطفالهم وبسنٍ صغيرة. فالمعموديّة ليست أمراً ينتظر لسنّ متقدّمة في نظر الوالدَين. حيث أنّ الوالد يعرف أنّ زواجه وحياته مكرَّسَين من أجل تقديم أولاده لله. فللزواج المسيحيّ غايات واضحة. ولا يجد الوالد أنّه حقّق ذاته ورسالته إذا لم يقُدْ ولدَه إلى أبيه السماويّ. لهذا فإنّ معموديّة الأطفال هي بديهيّة ومسلّمة طبيعيّة في التربية المسيحيّة.

لذلك حين يتعارض الرباط العائليّ الطبيعيّ مع غايته الحقيقيّة والروحيّة، أي عندما لا يقود إلى الآب ويتمّم عمل يسوع، عندها لا يشكّل فكّه خطيئة بل واجباً. من هنا نستطيع ألاّ نسيء فهم كلمات يسوع "مَن أحبَّ أباً أو أماً أكثر منّي فهو لا يستحقّني"، وهذا يعني أنّه لا حقّ للوالد أن يأخذ مكان الأب، بل أن ينوب عنه حتّى يقودنا إليه[٤١]. رباط يحول دون الوصول للأب يُسيء بدل أن يفيد. يقدّم يسوع المثل في هذا الموضوع، حين في سنّ الاثنَي عشرة سنة وهو يعلّم المعلّمين في الهيكل يقول لأمّه "إنّي لأبي (الآب)"، أي وإن كان ابن مريم فهو ابن "الآب"[٤٢]. يحدّد يسوع علانيّةً مَن هم أمّه وإخوته، جواباً على الذين قالوا له:

---

[٣٨] رؤ ٢١، ٢.

[39] "παιδοκτόνοι μάλλον εισι".

يوحنا الذهبي الفمّ، في تربية الأولاد، [*PG* 51, 327].

[40] "μεγάλη παρακαταθήκη έχομεν τα παιδιά".

يوحنا الذهبي الفمّ، في شرح الرسالة الأولى إلى تيموثاوس ٩، [*PG* 61, 546-550].

[٤١] مت ١٠، ٣٧. لو ١٤، ٢٦.

[٤٢] لو ٢، ٤٩–٥٠.

"إخوتك في الخارج"، فيشير إلى تلاميذه ومريمَ – أُمِّه ويعلن أنّ عائلته هي "مَن يحفظون كلمة الله ويعملون بها"[43].

إنّ التشديد على هذا المفهوم "للعائلة الروحيّة"، لا يعني أبداً إلغاء رابط العائلة الطبيعيّة. ولا يعني أنّ تحقيق العائلة الإلهيّة المكونة من جميع البشر حول أبيهم السماويّ الواحد يتمّ دون الرباط العائليّ الطبيعيّ، حاشى! بل تماماً يريد هذا التشديد أن يؤكّد دور وطبيعة العائلة الطبيعيّة بالشرطَين الوارد ذكرهما. إنّ العائلة رباط مقدّس لكنّه يجب أن يبقى مندرجاً في اتجاه بناء العائلة المسكونيّة وليس في اتجاه عنصريّ أو عرقيّ أو ما إلى ذلك... والشرط الثاني أن يُحافَظ لله على موقعه الحقيقيّ كأب. فالعائلات الطبيعيّة هي خلايا جسم العائلة الواحدة الكبيرة، ويحتلّ الله الآب موقع الأب في العائلة الصغيرة والكبيرة.

لهذا، وإن كان على يسوع أن يكون لأبيه (الآب) كان في الوقت ذاته "خاضعاً لهما" (لمريم ويوسف). وقد أكّد الربّ يسوع مجدّداً الوصيّة الرابعة القائمة على احترام الوالدَين[44]، وحتّى اللّحظة الأخيرة اهتمّ بأمّه وأسلمها إلى تلميذه الحبيب. ولكنّه أيضاً ضمّ تلميذه إلى عائلته الطبيعيّة حين قال له هذه هي أمّك، ليس عن طريق البشرة إنّما بسبب المحبّة والرباط الروحيّ أيضاً[45]. ويُستدلّ من حدث عرس قانا الجليل، حين تمّم يسوع يسوع رغبة والدته، رغم أنّها لم تكن قد حانت ساعتُه وجاء طلبُها قبل الأوان، أي ليس في وقته، يُظهر ذلك دالّةَ وقوّةَ الرباط العائليّ الطبيعيّ عند يسوع واحترامه وقبوله له، رغم أولويّة الرباط الروحيّ[46].

تشكّل **"مريم" المثال الأعلى** للرباط العائليّ. فقد اهتمّت بيسوع جسديّاً ولكنّها أقامت معه الرباط الروحيّ أيضاً. لا تنحصر الأبوّة والأمومة في الوالدَين بالولادة أو العناية الماديّة أو تقديم الواجبات الماديّة والحاجات للأولاد. بل تكمن قبل كلّ شيء "بتقليدهم الإيمان وتسليمهم الحياة التي تقودهم إلى الله الآب".

فلا غرابة أن نرى **الاضطرابات بين الأهل والبنين** عندما تغيب الطبيعة الحقيقيّة للوالدَين، وهي العناية الروحيّة. "فالوالد ليس مَن يلد بل مَن يربّي". والأدب الإنسانيّ مليء بهذه الأمثلة (الإسكندر). لذلك من الواجبات الأولى للوالدَين في العائلة أن يقدّموا التعليم والاعتماد على أبٍ روحيّ لهم وللأولاد – كمعلّمٍ للإيمان[47]. وأن يكونوا بقرب أبنائهم ليس من حيث السكنى فقط بل بتعليمهم حياة الفضائل وتدريبهم

[43] مت ١٢، ٤٨-٥٠.
[44] لو ٢، ٥١.
[45] يو ١٩، ٢٦-٢٧.
[46] يو ٢، ١-١١.
[47] يوحنا الذهبي الفمّ، [*ЕПЕ* 30, 694-698].

عليها[٤٨]. إنّ العائلة هي الرباط الأوّل من حيث الزمن والأهمية في نقل الإيمان، والذي بدونه تفقد العائلة غايتَها المسيحيّة الخلاصيّة كحقيقةٍ للحياة وغاية كلّ إنسانٍ وارد إلى العالم"[٤٩].

تبدأ العناية الروحيّة والتنشئة المسيحيّة من الوالدين منذ طفولة أولادهم، حتّى الرضّع منهم، لمشاركتهم في العبادة والتعليم بما يناسب عمرهم وحاجاتهم[٥٠]. فيدرّبونهم على التسبيح والمزامير ويؤمّنون لهم المعشر الجيّد[٥١].

هكذا تسمّى العائلة "بيتاً ملكيّاً" للسيّد ويجب منع اللّصوص من سرقة الوديعة التي فيها. هذه التربية الروحيّة تشمل الجميع. وفي وقتٍ كانت فيه النساء والبنات يُستثنَينَ من العبادات العامّة، نرى القديسين والآباء يشدّدون على ضرورة مشاركتهنّ أيضاً. فهذا هو الرباط العائليّ الحقيقيّ الذي يجب ألاّ يُحرم منه أيّ عضو، من الأهل حتّى الأولاد، رجالاً ونساءً شباباً وشابّاتٍ وأطفالاً[٥٢].

من هنا ينشأ في التقليد تشديد على صورة "**الكنيسة البيتيّة**" (domestic church). ترد هذه اللّفظة عند بولس الرسول، وغدت الصورة الأمثل للتعبير عن حقيقة العائلة: هناك إذاً الوالد والوالدة والأولاد مجتمعون على المحبّة والتفاهم وتربطهم الفضائل المسيحيّة و"وسطهم المسيح"[٥٣]. فالعائلة هي كنيسة صغيرة في بيت كما الكنيسة كلّها في العالم[٥٤]. العائلة هي فردوسٌ صغير، لكن فقط عندما تتحقّق فيها هذه الروابط الروحيّة، وتتمّ فيها قراءة الكتاب المقدّس[٥٥].

كلّ دقائق الحياة يجب أن تكون خاضعة لهذه التربية ومستخدَمةً لبناء هذه العلاقة الروحيّة. فلا نستخفنَّ مثلاً حتّى بإعطاء الأسماء وتسمية الأولاد، لأنّ ذلك له دورٌ تربويٌّ هامّ جدّاً وينقل لهم آداباً معيّنة ثمينة[٥٦].

العائلة هي "العشّ" و"الحرم" الذي يتربّى فيه الإنسان، وينال منه قواه ومعارفه الأولى الروحيّة والأساسيّة. لهذا يشدّد الكتاب والتقليد الآبائيّ كثيراً على **دور التربية**، التي نجد خطوطها الصريحة والواضحة في الكتاب المقدّس بعهدَيه[٥٧]، والتي علينا تنشئة أولادنا عليها[٥٨]. لهذا فإنّ فنّ التربية هو أمرٌ أساسيٌّ في النظرة

---

[٤٨] يوحنا الذهبي الفمّ، إلى ثيوذتس ٦١، [PG 52, 642].

[٤٩] يوحنا الذهبي الفمّ، في شرح المزمور ٦٣، [PG 55, 169].

[٥٠] يوحنا الذهبي الفمّ، حول القديسة حنّة ٢، [PG 54, 552].

[٥١] يوحنا الذهبي الفمّ، في شرح الرسالة إلى أهل كولوسي ٩، [PG 62, 362-363].

[٥٢] يوحنا الذهبي الفم، حول القديسة حنة، [PG 54, 658-959] .

[٥٣] يوحنا الذهبي الفمّ، في شرح سفر التكوين ٧، [PG 54, 616]:

"Ένθα ανήρ και γυνή και παιδιά και ομόνοια και φιλία και της αρετής συνδεδεμένοι δεσμοίς, εκεί μέσος ο Χριστός".

[٥٤] يوحنا الذهبي الفمّ، في شرح سفر التكوين ٦، [PG 54, 607]:

"Εκκλησία ποίησόν σου την οικία. Και γαρ υπεύθυνος εί και της των παίδων και της των οικετών σωτηρίας".

[٥٥] يوحنا الذهبي الفمّ، في شرح سفر التكوين ٨، [PG 54, 619-620].

[٥٦] يوحنا الذهبي الفمّ، [ΕΠΕ 30, 666-672].

[٥٧] أف ٥، ٢٦-٦، ٤. كولـ ٣، ١٨-٢١. ١ بطر ٣، ١-٧.

المسيحيّة للحياة والعائلة. "فليس أهمّ من هذا الفن، ولا أسمى من تكوين شخصيّة إنسانٍ وخلق ذهنيّته الصحيحة"[٥٩]. إنّه فنّ زرع مخافة الله التي هي بدء الحكمة بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من شموليّة في الحياة، الأمر الذي يجب أن يبدأ من سنٍ مبكرة[٦٠].

هذه هي العلاقات الروحيّة، التقوى، الإيمان، الارتباط بالله الآب، والاتصال بعنايته، كلّها هي الإرث الحقيقيّ الذي يجب نقله عبر الأجيال، من الأهل إلى الأولاد[٦١]. والعائلة المثاليّة هي التي يظهر فيها هذا التقليد والاستمراريّة بين الأهل والبنين[٦٢].

ليس من مَثَلٍ أوضح لتشديد الربّ في الكتاب على تربية الأولاد من مَثَل الكاهن الشيخ عالي[٦٣]. إذ لا يكفي ولا يبرّر أبداً البرّ الذاتي إن ترافق مع إهمالٍ للأولاد. الحياة المسيحيّة ليست إيفاء دَين شخصيّ لله، ولا هي تخليص للذّات بشكل سحريّ من عقاب إلهيّ يترصّدنا، ولا هي مسلكيّة خلقيّة راقية مع الآخرين فقط مثلاً. الحياة المسيحيّة تمتلك غايةً ساميةً جدّاً ودقيقة، وهذه الغاية هي التصوّر بالله الخالق والتشبّه به، أي خلق أولادٍ وأبناءٍ لله. لذلك عاقب الله في الكتاب عالي رغم برّه، لأنّه لم يؤدّب أولاده[٦٤]. إنّ إهمال الأولاد عليه الحكم الأقسى في الكتاب[٦٥].

عندما نتكلّم عن روابط، ونشدّد على أهميّة تماسكها، فهذا لا يخرج عن طريقتنا المسيحيّة المبنيّة على المفهوم الشخصانيّ للإنسان. أي إنّه عندما يزداد **الرابط فهو لا يلغي الاستقلاليّة**. فالتربية العائليّة لا تجبل العائلة كتلةً واحدة، إنّما تبني أشخاصاً أحراراً مستقلّين ومتّحدين بإرادتهم ومحبّتهم، يعبدون الله بالروح والحقّ والحريّة. فالوحدة تبقى مع التعدّدية، والتعدّدية لا تسير إلى تَفْرِقة. نقصد بالتعدّدية تنوّع الطبائع والمواهب. ولكن أيضاً الظروف المختلفة كالغنى والفقر والمسؤوليّات وسواها، هذه كلّها لا تلغي رباط العائلة عندما

---

[٥٨] ٢ تيمو٣، ١٥.

[٥٩] يوحنا الذهبي الفمّ، في شرح متى ٥٩، [*PG* 58, 582]:

"Της τέχνης ταύτης ουκ έστιν άλλη μείζων. Τι γαρ ίσον του ρυθμήσαι ψυχήν και διαπλάσαι νέου διανοίας;"

[٦٠] يوحنا الذهبي الفمّ، في شرح الرسالة الأولى إلى أهل تسالونيك ٦، [*PG 62, 433*].

[٦١] يوحنا الذهبي الفمّ، في شرح الرسالة إلى أهل رومية، [*PG* 60, 453].

[٦٢] يوحنا الذهبي الفمّ، في شرح الرسالة إلى أهل رومية ٣٢، [*PG* 60, 67].

[٦٣] ١ صمو ٢، ١١. ٤، ١٨.

[٦٤] يوحنا الذهبي الفمّ، في شرح التكوين ٥٩، [*PG* 54, 519-520]؛ في شرح الرسالة إلى أهل أفسس ٢١، [*PG* 62, 150-152].

[٦٥] يوحنا الذهبي الفمّ، [*PG* 47, 352-353].

يكون روحيّاً كما ذكرناه، على العكس تجعله يتبلور أكثر، بينما كلّ ما سبق يمكنه أن يفكّك الرباط العائليّ عندما ينحصر الأخير في حدوده الطبيعيّة فقط[٦٦].

يتّضح مما سبق إذاً أنّ المفهوم الروحي لطبيعة العائلة لا ينحصر في أبعادٍ اجتماعيّة فقط، ولا بالأحرى في إطار تنشئة الفرد الإنسانيّ ضمن أصول نفسيّة وشروط مبدئيّة. بل ننطلق بالأساس من المفهوم الأنثروبولوجيّ للإنسان "على صورة الله وعلى مثاله". إنّ تحديد غاية الحياة الإنسانيّة هو الذي يحدّد شكل وغاية العائلة المسيحيّة، مادامت هذه الأخيرة هي التي تلعب الدور الأساسيّ في تنشئته، وهي التي يحقّق فيها رسالة حياتِه. نظرتنا المسيحيّة لكلّ إنسان هي أنّه ابن لله وخادم له وشريكه في عمل الخلق (الثاني). هذا الدور هو ما يسمّى الدور الكهنوتيّ للإنسان في العالم. الذي لا يتم إلاّ في إطار العائلة التي أبوها الله وأعضاؤها عامّة هم البشر أجمعون وخاصّة الأقربون في العائلة الطبيعيّة[٦٧].

لهذا يجب أن تكون العائلة هي المدرسة الأساسيّة التي يبدأ فيها الإنسان التمييز بين الشّر والخير، ويمتلك مبادئ الحياة. ومن هذه العائلة السليمة سوف تتكوّن العائلة الأكبر بشكل سليم. إنّ مستقبل البشر مبنيّ على بنية وتركيب عائلاتهم.

إنّ هذه التربية للإنسان تمسّ نواحي حريّته وإرادته (γνώμη) أكثر مما تتأثّر بطبيعته (φύση). هذه التنشئة تتمّ في العائلة، ومن هنا تأخذ الأخيرة أهميّتها، فهي الطريق لهذه الحياة وهي غايتها أيضاً. لذلك فإنّ روابطها الطبيعيّة يجب ألاّ تخلو من المضمون الروحيّ الذي لها بالأساس، وإلاّ لفقدت غايتها وعلّتها. إنّ حقيقة الله كأب تعطي للعائلة صيغة ومبادئ خلقية، كما أنّها تجعل هذه العائلة خليّة بنّاءة للسلام والوحدة الإنسانيّة بالروح والإيمان.

II. التحديات الراهنة أمام المفهوم المسيحيّ للعائلة

لعلّ من أهمّ المظاهر التي يجدر بالفكر المسيحيّ الاهتمام بها أو يجدر بنا العودة إليه في معالجتها، هي:

١. غاية الزواج واختيار الشريك.

٢. تفكّك العائلة.

٣. تنظيم الأسرة.

ونعتقد أنّ الرؤيا السابقة لأسس وغاية العائلة تستطيع أن تحلّ كلّ هذه الأزمات الاجتماعية والإنسانيّة وسواها.

---

[٦٦] يوحنا الذهبي الفمّ، في شرح الرسالة إلى أهل أفسس ٢٢، [*PG* 62, 158].

[٦٧] يوحنا الذهبي الفمّ، [*PG* 47, 384].

١.غاية الزواج واختيار الشريك

مهما تبدّلت أفكار الناس حول رابط العائلة ودواعي الزواج فإنّها لا تخرج خارج بعض الأطر المحدّدة، منها مثلاً الحاجة للإشباع الجنسيّ، ومنها إنجاب الأولاد أو تشكيل بنيةٍ اجتماعيّة. لكن ما تريد المسيحيّة التشديد عليه هو الروحانية السابقة، أي الإجابة على العطش الأنثروبولوجي العميق للكيان البشريّ، الذي ليس الجنس مسألةً غريبة عنه ولكنّه ليس الدافع الأساسيّ والوحيد فيه. كذلك وإن كان الإنجاب بركةً إلهيّة فإنّه يبقى أحد جوانب الكمال الروحيّ من النظرة الأنثروبولوجيّة المسيحيّة وليس الجانبَ الوحيد لها. لا يشكّل الزواج عقداً بين طرفَين ضمن ضماناتٍ اجتماعيّة. بل الزواج بحسب تعريف الكنيسة هو سرّ، مادام هذا السرّ الإلهيّ يسعى لتكوين "الكاهن" الذي يحمل العالم إلى الله.

هكذا من خلال الرؤيا الروحيّة السابقة للعائلة يفترض وجود بعض **المؤهّلات في الشريك** عند اختياره. إنّ خدمة طقس الزواج في تقليدنا الأرثوذكسيّ ملآنة بالأمثلة الكتابيّة، مثل ابراهيم وسارة؛ اسحق ورفقة،... إلخ وليس ذلك لتكرار قصص من العهد القديم، قد تبدو اليوم وكأنّها لا تعني شيئاً للعروسَين! وإنّما تماماً لتذكّر بالأسباب الروحيّة التي اختار هؤلاء على أساسها شريكةَ حياتهم. فإنّ التوافق الروحيّ، كما تشرحه هذه الأمثلة، هو الأرضيّة الحقيقيّة التي يجب أن تتوفّر في شريك الحياة، الذي ستُبنى معه عائلة روحيّة.

لا شكّ أنّ **الحبّ والحريّة** هما الشرطان الأساسيّان لقيام عائلة مباركة، لهذا نشأ في الكنيسة تقليد "الخطوبة"، وهي الفترة الضروريّة للتعارف والاستعداد وامتحان القرار الحرّ والحبّ الحقيقيّ بين الطرفَين. ولكن هناك العديد من العوامل التي تجعل هذا الحبّ وهذه الحريّة ممكنَين على أرض الواقع، وكلّها يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار. وما يريده الفكر المسيحيّ أن يكون كلٌّ من هذه العوامل خاضعاً تماماً للغاية التي من أجلها يتمّ بناء العائلة، وهي تلك المفاهيم الروحيّة، التي هي سبب ارتباط اثنَين بحياة شركة الزواج. كما أنّ شروط الفصل هي تماماً تلك التي تمسّ بهذه الغاية وهذه المفاهيم الروحيّة. لا بل إنّ إحدى "الغرابات المباركة" هو قبول الكنيسة لانفصال زوجَين عندما يقرّر الاثنان بحريّتهما ورغبتَيهما واتفاقهما أن ينفصلا ليذهبا كلاهما إلى حياة الرهبنة والتوحّد. حيث أنّ هذه الطريق أيضاً تجعلهما في عائلة الله وأبناءً له، ولا يُعتبر ذلك هدماً لشركة حياة بل مضياً مشتركاً لما هو مثيلٌ في وضع بنوّتنا لله أمام طاعته في عائلته الروحيّة.

لا شكّ أنّ معايير عديدةً تلعب اليوم الدور في اختيار الشريك، لكنّها عندما تبتعد عن الجذور الروحيّة للعائلة ستترك آثاراً سيّئة بعد الارتباط، قد تصل إلى عدم استمرار الزواج.

بالإضافة إلى المعايير الخاطئة منذ بداية الاختيار (المعايير غير الروحيّة)، فإنّ ما يزيد من تفكيك روابط العائلة هي الأهواءُ الشخصيّة والأنانيّة وعدمُ التمرّس على الفضائل المسيحيّة وهيمنةُ روحانيّة فكر مجتمع

الاستهلاك، كلّ ذلك يجعل الحياةَ المشتركة عموماً صعبة، فكم بالأحرى في الزواج حيث يجب أن تكون حياة الشركة هي كلّ الحياة. فالفضائل المسيحيّة كالمسامحة والتواضع والبذل والمحبّة الصادقة والاحترام، هي شروطٌ حقيقة لاستمرار الرباط العائليّ.

ولا يمكننا فهم **بعض الموانع للزواج**، التي تحدّدها الكنيسة إلاّ من منظار تلك الرؤيا الروحيّة للعائلة. فهناك موانع كنسيّة للارتباط بين رجلٍ وامرأة لا نجدها لا في القوانين المدنيّة ولا في اليهوديّة ولا أيضاً في الإسلام مثلاً. ومنها تحديد السنّ الأدنى للشاب والشابّة ومنع الارتباط بين الأقارب (بينما هذا محببٌ في اليهودية). ولم تصل الموانع إلى درجات القربى الجسديّة فقط، وإنّما شملت درجات القربى الروحيّة مثل العرّاب والإشبين.

إنّ كلّ هذه الشروط، التي قد تبدو قاسية، ما هي إلاّ نوع من أنواع حماية العائلة وضمانة البعد الروحيّ لها بين الأقارب وشدّ الروابط العائليّة بين الناس. بدون هذا السبب لا توجد أيّة مبرّراتٍ تفسّر هذه الشروط. لا بل إنّ هذه الأعراف الكنسيّة تُظهر مدى سهر الكنيسة على الروابط العائليّة. من هذا المنظار الروحيّ أيضاً للعائلة، لا يُسمح للكاهن بالزواج بعد سيامته ولكن فقط قبل السيامة. حيث بعد السيامة يلعب الكاهن دور الأب في كلّ عائلةٍ ومع كلّ عضوٍ في الكنيسة ولكلّ فتاة، وهكذا يُنظر إليه من الجميع. لم تعدْ بعض هذه الشروط اليوم مطبّقةً بحرفيّتها، وذلك بسبب تبدّل ظروف العمل والحياة وحجم الروابط العائليّة فعلاً. لكن يبقى السبب الحقيقيّ والعمليّ الذي يمنع دون شك الارتباط بين الأقارب هو الخطر المتمثّل طبيّاً بقرابة الدمّ وانعكاساته المعروفة في الإنجاب.

٢. تفكك العائلة

يعود تفكّك العائلة بنظرنا **لنسيان الصورة الحقيقيّة الروحية للعائلة**، ولغياب هذا الهدف الأخير وهو اقتناء "التبنّي الإلهيّ" لنا كحياةٍ شخصيّة يكون فيها الله أب العائلة كلّها. ونودّ هنا الإشارة إلى بعض المظاهر التي تبدو غريبةً عن صورة العائلة في الكتاب المقدّس، والتي تشكّل بالتالي نقاط الضعف في بنية العائلة في أيامنا، وتسبّب منفردة أو مجتمعة أسباباً للفصل والتفكّك والطلاق... ويسبق كلّ هذه الأسباب ما ذكرناه سابقاً من أخطاءٍ في اختيار شريك الحياة، ومن هذه المظاهر:

١. <u>تأخّر عمر الاستقرار:</u>

من الواضح اليوم أن طبيعة الدراسة والتحصيل والاستعداد امتدت على فترة من حياة الإنسان أطول بكثيرٍ من السابق. هكذا فإنّ زهرة الشباب وعمر الزواج يخضعان لموانع بسبب تأمين الحياة، وهذا يولّد اضطراباً قد لا يسهل على الشاب تجاوزه، أو يقوده إلى علاقات وارتباطات واختيارات سريعة لا تستمرّ.

٢. <u>الخروج السريع والمبكّر من العائلة:</u>

ويعود ذلك لسببَين، الأوّل هو ضعف الرباط العائليّ بالأساس، وخاصة بسبب غياب الأخ والأخت في الحياة المنــزليّة، حيث يشيع اليوم تحديد النسل بولدٍ أو اثنَين على الأكثر في عائلاتٍ عديدة. هكذا لا يجد الشاب مثيلاً له في العائلة ويطلب، من سنّه المبكّرة والمراهقة، رفقته حيث يمكنه الحصول عليها، طبعاً خارج المنــزل. إنّ العائلة المحدودة العدد لا تؤمّن لأولادها معنى "الأخ" أو "الأخت"؛ حين يكون الطفل أو الشاب وحيداً أو شبه وحيد في المنــزل. والسبب الثاني ربّما هو ظروف الدراسة التي تتطلّب مرّات عديدة ترك البيت الأبويّ، أو حتّى ظروف العمل. هذان السببان مجتمعان يقودان إلى حياة مستقلّة تَطلُب استقراراً وارتباطاً زوجيّاً سريعاً، قد لا يتمّ عن نضوج وخبرة كافية، الأمر الذي يسهّل تفكّك العائلة في المستقبل.

٣. مجتمع الاستهلاك:

يضغط هذا المجتمع بذهنيّته على الشاب والشابّة من حيث أوّلاً ساعات العمل وتحجيم الوقت الحرّ، ويشكّك بأهمّ مبادئ الحياة المشتركة كالصداقة والبذل ويشيع قيم الربح والحياة الفرديّة بمصالحها ومزاجاتها. بيئةٌ كهذه ترافق الإنسان بعقلانيّتها في حياته الزوجيّة تحرم الحياةَ الكثيرَ من مقوماتها الأساسيّة.

في هذا المجال تبدو أهميّة التعاليم والفضائل المسيحيّة ضروريّةً جدّاً لنجاح واستمرار الحياة العائليّة.

٣. تنظيم الأسرة

يعذّب هذا الموضوع مجتمعاتِنا وحياةَ الناس في كلّ مكان، وأكثر من ذلك الفكرَ الدينيّ ذاته في كلّ الأديان تقريباً. حيث يبدو للأديان أنّ منع الإنجاب، بطرقه المتعدّدة، هو نوع من أنواع منع عمل الخالق وحجب بركته الإلهيّة. وحتّى في الأوساط المسيحيّة هناك آراءٌ متباينة حول ذلك. إنّنا لا نؤمن بأنّ معالجة هذه المسالة ذات أبعادٍ اجتماعيّةٍ واقتصاديّة أو مجرّد دينيّةٍ عقائديّة حتّى بل نعتقد أنّ الشروط الروحيّة هي المبرّر الوحيد لوجود العائلة، فهي المبرّر الوحيد الذي يمكنه أن يكون وراء إنجاب عدد كبير أو عدد صغير من الأولاد. دون تعليلٍ روحيّ يوافق مفهوم العائلة الروحيّ السابق عرضه، فلا الإنجاب مبرّرٌ ولا حدُّه مبرّرٌ أيضاً.

لا شكّ أنّ الرغبة في الإنجاب، لدى الزوجَين المسيحيَّين، تُعتبر من الدوافع الأولى للزواج، لأنّها بنظرهما بركةٌ إلهيّة، تؤهّلهما مشاركةُ الأولاد الفرح العائليّ ونعمة الحياة المسيحيّة.

إنّ أيّ ارتباط بين زوجَين لا يرغبان بإنجاب أولاد يكون مبيّناً على أسس أنانيّة، هي عكس غاية الزواج ذاته، أي الكمال الروحيّ للإنسان. جلب أولاد إلى الحياة هو مشاركة إنسانيّة حقيقيّة في عمل الله الخالق، ورفضُ هذه النعمة يعني تماماً معارضةَ الإرادة الإلهيّة، وخسرانَ الهديّة الإنسانيّة الحقيقيّة الكاملة للإنسان.

لكن يجدر بنا هنا التشديد على الفارق بين نظرة العهد القديم ونظرة العهد الجديد للإنجاب. حيث أنّ الأوّل (في اليهوديّة) يعتبر الزواج أداةً للإنجاب أوّلاً. بينما العهد الجديد يرى الزواج طريقة اتحاد كيانيّ بين اثنَين أوّلاً، على صورة اتّحاد المسيح والكنيسة. في الواقع لا نلاحظ في الأناجيل ولا حتى عند بولس الرسول التعليمَ بأنّ الإنجابَ فقط يبرّرُ الزواجَ، وهكذا غالباً في كلّ التقليد الآبائي الشريف اللاحق. من أهمّ الآباء الذين كتبوا في الزواج هو الذهبيّ الفمّ، الذي يتطرّق كثيراً له في مواعظه، ونلاحظ فيها تشديده على "سرّ الزواج" وعلى اتّحاد الزوجَين، بينما يتكلّم عن الإنجاب عرضياً وسريعاً. (راجع عظته الـــ٢٠ في الرسالة إلى أهل أفسس).

إنّ الفكر المسيحيّ الغربيّ اليوم متضارب جدّاً في هذا الشأن. وهذا ما نشهده في وسائل الإعلام العامّ، التي تقدّم هذه المسألة من وجهات نظر ليست دائماً مسيحيّة وحقيقيّة. أضف إلى ذلك "الرسائل البابويّة" التي تمنع على المؤمنين الكاثوليك استخدام وسائل تنظيم الحمل. وهذه كلّها تزيد من تعقيد المسألة في العالم الغربيّ.

الواقع أنّه ولوقتٍ قريب، كان الفكر المسيحيّ الغربيّ عن الزواج والجنس متأثّراً جدّاً بالفكر الأوغسطينيّ (+٤٣٠) ومؤسَّساً عليه. هذا الفكر الذي يعتبر- عند أوغسطين- أنّ الجنس كان أداة الخطيئة وقناة لها وبه نتوارث هذه "الخطيئة الجديّة الأصليّة"، من آدم إلى أحفاده البشر. هكذا كنتيجة يختلط الزواج مع مسألة الخطيئة الجدّية والخطيئة عامّة. ولا يمكن إذاً أن يُنظر للزواج كبريءٍ من الخطيئة إلاّ من منظار كونه أداة ضروريّة للإنجاب، عندها يُنظر إلى كلّ العلاقات الجنسيّة بين الزوجَين خارج هذه الغاية (الإنجاب) كما وأنّها خطيئة.

بينما في الفكر الأرثوذكسيّ، وعلى العكس، لا يُدان الزواج بحكم الحياة الجنسيّة التي فيه. رغم أنّ "الجنس" بمفهومه الحاليّ هو حالة جاءت بعد السقوط (الشهوة الجنسيّة) ويمكن أن تقود إلى الخطيئة. لكنّها ليست الأداة الوحيدة للخطايا. وليست القناة التي تنقل الخطيئة الأصليّة من آدم إلى الأجيال. إنّ الزواج هو سرّ مقدّس.

مسألة "تنظيم الأسرة"، التي تشغل الفكر المسيحيّ كثيراً، لها أبعاد أخرى مغايرة عن ارتباط الجنس بالخطيئة. فرغم قدسيّة الإنجاب في المسيحيّة لا يشكّل الإنجاب ولادة حقيقيّة (مشاركة في عمل الخلق مع الله) عندما يترافق هذا الإنجاب مع إهمالٍ أو تقصيرٍ أو عجزٍ عن تأمين التربية والتنشئة الضروريّة التي تجعل هذه الخليقة الجديدة تشترك في مجد الله وحياة الكنيسة بكفاءة. كما أنّ إنجاب الأولاد وحرمانهم الشروط الأساسيّة للحياة والنمو والتربية يُعدّ بمثابة "قتل" وليس ولادة.

يرتبط الإنجاب بالعمق بمسؤوليّاتٍ عديدةٍ أخرى غير "الولادة الجسديّة". وواجبات الأهل المطلوبة بالإضافة للإنجاب عديدة وكبيرة، التي يجب ألاّ تعوقها الحالات الماديّة والبيئيّة وسواها. كلّ إنجاب يجب أن يؤمّن له ما يقابله من مسؤوليّاتٍ تربويّةٍ ومسيحيّة من قِبَلِ الوالدَين.

لذلك قد يكون لموضوع تنظيم الأسرة، من خلال هذه النظرة الشاملة والمتكاملة لموضوع الولادة والإنجاب، أسباب ودواعٍ وظروف تتطلّبه. ولكنّنا نؤمن أنّ هذا الموضوع لا يجب أن يُعالج بخفّة ولا من أسباب أنانيّة أو إهمال من الزوجَين وكسل، وإنّما تحت نصح وإرشاد أب روحيّ يراقب نموّ العائلة وجهاد الزوجَين وظروفهما. أضف إلى ذلك ضرورة إيمان الزوجَين بالعناية الإلهيّة من جهة، وأيضاً بضرورة العيش في الاكتفاء وفي الأخلاق المسيحيّة لمفاهيم الغنى والمال... الخ، من جهةٍ ثانية. أخيراً إنّ الفرح الذي تحصل عليه الأمّ عندما تلد ابناً على الأرض، كما يصفه الإنجيل[٦٨]، هو فرحٌ عظيمٌ. هذه كلّها أسباب توجّه وتحدّد سياسة تنظيم الأسرة وتحديد عدد الأولاد.

إنّ المسيحيّ يرتبط بسرّ الزواج ليتّحد كيانيّاً في حركة كمال مشتركة مع الطرف الآخر وليشارك في كمال الخلق الإلهيّ (الخلق الماديّ والروحيّ)، وليس له بذلك غايات أنانيّة إنّما إيمانيّة. فقط تحت هذه الشروط يمكننا تقبّل موضوع تنظيم الأسرة بحرّيّة الروح.

لا شكّ أنّه يمكن تنظيم الإنجاب في الأسرة زمنيّاً وعدديّاً، ولا بدّ من ذلك في حياة العائلة اليوم للحفاظ عليها وعلى طبيعتها الروحيّة بالذات. لكن يجب أن يتمّ كلّه بروح التنظيم وليس التحديد. فالكنيسة تشجّع الإنجاب وزيادة عدد الأولاد دون أن يُخَلّ بالشروط الروحيّة للعائلة بسبب من ذلك.

خاتمة

إنّ العائلة رابط حقيقيّ وطبيعيّ لا يمكن للإنسان تجنّبه حكماً، وإذا كنّا نلاحظ اليوم تفكّك هذا الرابط وضعفه بالمقارنة مع الماضي، فإنّ مسؤوليّتنا تصير أكبر. ونؤمن أنّ الفكر المسيحيّ عن العائلة يعالج من جهة الضعفات التي تؤدّي إلى الشكّ بهذا الرابط في وقت معيّن من الحياة، وأنّه، من جهةٍ ثانية، يجيب على الصورة المفقودة عند الذين يرفضون هذا النمط والرباط باحثين بمعرفة أو بغير معرفة عن هذه الصورة المفقودة. لذلك إنّ التأمّل بالصورة الكتابيّة للعائلة هو أمر ضروريّ اليوم لمجتمعاتنا، ويحسن إدخالها وتعليمها في وسائل الإعلام والمناهج الدراسيّة والطرق التربويّة.

---

[٦٨] يو ١٦، ٢١.